٣٥ الحافظ صدر الدين الأصفهانى صاحب أول مدرسة سلفية

وما تدرى نَفْسٌ ماذا تكسب غداً، أو بأى أرض تموت.. لقد صدق هذا المعنى القرآنى الجليل على الشيخ الحافظ صدر الدين أبو الطاهر بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفى الأصفهانى الذى ولد وعاش صباه بأصفهان فى إيران. لينتقل فى أرض الله حيث يستقر به المقام فى الإسكندرية ليموت ويُدفن بها سنة ٥٧٥ هجرية.

وواضح من اسم الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى - وهو الاسم الذى عُرف به - شهرته وجنسيته وموطنه الأصلى. فشهرته التى عُرف بها فى أى مكان يوجد فيه من العالم الإسلامى هو «الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهانى يدل دلالة ظاهرة، وأخرى لغوية على جنسيته وموطنه الأصلى. فأما الدلالة الظاهرة فهى فى كلمة الأصفهانى، وأما الدلالة اللغوية فهى فى كلمة السلفى، ومعناها بالفارسية أنه صاحب ثلاث شفاه. لأن شفته العليا كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين، وأما جنسيته وموطنه فواضحان من كلمة الأصفهانى، حيث موطنه ومسقط رأسه بأصفهان، وجنسيته إيرانية.

وطبيعى أن يتلقى هذا الشيخ الصالح علومه الأولى فى مدينة أصفهان حيث ولد فيها عام ٤٧٥ هجرية، واتجه منذ نعومة أظفاره إلى العلوم الدينية، وخاصة علم الحديث، قراءة وحفظاً، تأملا، وتفسيراً.. على فقهاء زمانه، وفى مقدمتهم ابن الفضل الثقفى، وابن عبد الوهاب المدينى، وابن على الحنفى.. وكما يذكر السبكى فى طبقات الشافعية أن هذا الشيخ الصالح قد طلب الحديث وهو لم يزل شاباً يافعاً. فكتب الأجزاء الخاصة بروايات هذا الحديث وردها إلى أصولها لمعرفة

الأصيل من الدخيل سنة ٤٩٠ هجرية، أى لم يكن قد تجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره، واستمر على هذا النحو أربع سنوات كاملة.. بعدها بدأ فى قول الحديث وترديده وتفسيره، ونبغ فى ذلك نبوغاً ملحوظاً، الأمر الذى جعل الناس يتجمعون حوله للإستفادة من علمه شيئاً فشيئا.. وما هى إلاَّ بضع سنوات حتى أصبح موضع ثقتهم، وملتقى تساؤلاتهم فيما أسبغ عليه الله من علمه وفضله. فاتخذ له مجلساً علمياً فى واحد من مساجد أصفهان.

ومن ناحية أخرى نجد هذا الشيخ الصالح لا يكتفى بما حقق من علم وفضل فى داخل حدود بلده أصفهان أو إيران كلها.. فلم تعد هذه أو تلك بعلمائها وفقائها تشبع نهم هذا العالم المتفتح الذهن. الأمر الذى جعله يرنو ببصره إلى خارج الحدود، حيث حواضر الإسلام، وأول ما التمع فى ذهنه بغداد، وقد كانت بعد المدينة المنورة من الحواضر الإسلامية التى تتجه إليها أنظار الباحثين والعلماء.. فيرحل إليها.. إلى بغداد.. التى كانت وقتئذ تموج بالأحداث الفكرية والعقلية، وتزخر بالتطورات السياسية والاجتماعية.. وتمتلئ بالفقهاء والعلماء.. حيث ما زالت الأمة الإسلامية فى مجدها وعظمتها التى لم تغرب بعد.

وفى ذلك يقول هو نفسه، أى الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى: «دخلتها ـ أى بغداد ـ ولم يكن لى همة ساعة دخولها إلاَّ المضى إلى الشيخ نصر ابن البطر ـ وكان من علماء زمانه ببغداد ـ فدخلت عليه وقلت له: وصلت يا سيدى من أصفهان إليك طالباً علمك وفضلك. فرحب بى. ثم قرأت عليه سبعة عشر حديثاً، وخمسة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم، وخرجت من عنده باكياً.. إلى أن أصبحت من أقرب تلاميذه إليه..».

وأما معنى خروجه باكياً من عند هذا الشيخ الجليل فى بغداد، فقد فسره بعض المؤرخين إلى أنه اكتشف قصور علمه بالنسبة إلى هذا العالم، وأن هناك جوانب كثيرة من العلم لا تزال خافية عليه، وأنه ما حقق من العلم إلاَّ قليلا، ولا يقاس بعلم واسع عند غيره.

ولم يكن الشيخ البطر هو أستاذ الشيخ صدر الدين الأصفهانى وحده فى

بغداد، وإنما كان هناك علماء آخرون فى الفقه واللغة والحديث والقرآن والتفسير. تردد وتتلمذ عليهم طوال أربعة أعوام كاملة. من بعدها توجه إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج.. وهناك التقى بعلماء الفقه والحديث، وفى مقدمتهم ابن جرير الطبرى بمكة، والإمام القزوينى بالمدينة، وتلقى عنهم العلم، واستفاد منهم إفادة أضافت الكثير إلى معارفة فى هذين الميدانين من العلوم.

وعاد إلى بغداد ليستوفى أبحاثه ودراساته، وليؤلف معجماً لعلمائه وأساتذته، وفى هذه الفترة بالذات وصفه ابن نصر قائلا: «كان الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى ببغداد كأنه شعلة نار فى تحصيل الحديث». ليعود إلى المشرق مرة ثانية، بادئاً بزيارة مدينة همذان فى إيران، فيلتقى بحجة الإسلام أبى حامد الغزالى، وليقول عنه: «حضرت مجلس الغزالى بهمذان، وكنا فى رباط واحد، وبيننا أُلْفَة وتودد، وكان أذكى خلق الله وأقدرهم على الكلام والمناقشة، وأفضلهم فى الفقه والحديث». وكان يقصد بالطبع العلماء الذين التقى بهم على الغزالى.

وترك الشيخ الحافظ السلفى الأصفهانى المشرق للمرة الثانية متوجهاً إلى دمشق، وأقام بها عامين. وكما يقول السبكى: «واتصف بعلم جَمّ، سمع منه الكثيرون واستفادوا» ومن دمشق ذهب إلى مدينة «صور» حيث ركب سفينة حملته إلى الإسكندرية. وكان وقتئذ فى السادسة والثلاثين من عمره.

وفى الإسكندرية كان كما وصفه الدكتور جمال الدين الشيال بكتابه أعلام الإسكندرية نقلا عن ابن السمعانى: «ثقةً ورعاً، متقناً، ثبتاً، حافظاً، فَهِماً، له حظ كبير من اللغة العربية، كثير الحديث والعلم، حسن الفهم والبصيرة».

وفى هذه المدينة تزوج واستوطن، واغتنى وتصدَّق، وصارت له وجاهة علمية واجتماعية، وفيها اشتغل بالتدريس، فكان يعقد حلقاته فى مساجدها، ولم يلبث أن أقبل الطلبة عليه من كل فج عميق، حتى أُنشئت لعلمه ودرسه مدرسة عرفت فيما بعد ـ فى التاريخ الإسلامى ـ بالمدرسة السلفية. نسبة إلى صاحبها ومؤسسها ومنشئها الحافظ السلفى وهى ثانى مدرسة بعد المدرسة النظامية الأولى التى أنشأها أبو الطاهر بن عوف بالإسكندرية تنسب إلى عالم لعلمه بالإسكندرية ومصر عامة.

وبقى الشيخ الحافظ السلفى بالإسكندرية معتكفاً فى مدرسته مدة مقامه بها أربعة وستين عاماً، لم يغادرها قط طوال هذه السنين سوى مرة واحدة، حين ذهب إلى مدينة الفسطاط، ليتصل بمن فيها من العلماء ليأخذ عنهم العلم، ويعطيهم ـ كما يذكر ـ مما وهبه الله من علم وفضل.

والجدير بالذكر أن الشيخ الحافظ السلفى الأصفهانى كان من العلماء القليلين الذين قَدَّرُوا المرأة العالمة الورعة التقية حق قدرها. فأشار إلى من يعرفهن من راويات الحديث كالسيدة عائشة رضى الله عنها، والسيدة نفيسه، والسيدة فاطمة النبوية، والسيدة عاتكة بنت زيد، وغيرهن ممن برزن فى الحضارة الإسلامية، فذكرهن فى كتابه «معجم السفر» كما ذكر النساء المشتغلات بالأدب كالشاعرات.

وكانت للشيخ الحافظ السلفى فى المجتمع السكندرى مكانة ملحوظة، فكان يسعى إليه الملوك والولاة والأمراء وكبار رجال الدولة، وكانت له عند العامة كرامات وبركات حتى قيل: إنه إذا اشتد المرض بواحد منهم هرع إليه، فكان يكتب له ورقة تحوى ايات من القرآن، فيشفى المريض بإذن الله، وقد كشف القوم عن هذه الورقة وما تحويها فوجدوا أن ما كُتب فيها إلى جانب الآيات القرآنية دعاءٌ لطيف فيه استعانة بالله عز وجل، قال فيه: «اللهم إنهم ظنوا بى خيراً فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم بى.. أنت القادر على كل شئ سبحانك..».

وبقى الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى بالإسكندرية حتى ناهز المائة من العمر، ودُفن بها، وله فيها ضريح يزار حتى اليوم.

* * *